ذكر الهلاك الخاص بأمم سابقة في القرآن الكريم

(الدروس والعبر)

الدكتور حيدر محمد سليمان

الأستاذ المشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن – كلية أصول الدين – جامعة أم درمان الإسلامية

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد ...

فإن أسباب الهلاك تأتي عامة منهياً عنها نهياً مطلقاً إلي قيام الساعة ليس النهي مقتصراً فيها على أمة دون أمة، ولا يتقيد بزمان ولا مكان وذلك مثل الشرك والاستكبار والظلم إلى غيرها من أسباب الهلاك العامة.

كما أن هناك أسباباً أخرى خاصة اقتصر النهي فيها على أمة دون أمة أو تكون أمراً خاصاً أمر به قوم مخالفون؛ كالنهي عن صيد السمك يوم السبت لبني إسرائيل، أو دخول القرية بصفة معينة، أو مس الناقة بسوء؛ كان أمراً خاصاً بثمود، وهلاك أصحاب الفيل في محاولتهم هدم الكعبة(١).

وهذه الأمم أصابها الهلاك لانتهاك حرمة الله تعالى التي أكد فيها على المنع على ألسنة رسلهم، وهذه الأمور وأمثالها حرمات شأنها شأن الحرمات الممنوعة في شرعنا، لأن المحرم واحد والمشرع واحد مهما اختلفت تلك الحرمات بين شرع وآخر، وقد نهى الله ﷻ عن انتهاك حرماته فقال في قتل المحرم للصيد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا

(١) مهما كان تعلق أسباب الهلاك هذه بأمم قد انقضت وصارت في ذمة التاريخ، فلا يعني هذا انعدام العبرة فيها، فمثلاً نحن المسلمين لدينا في شريعتنا أشباه لتلك المنهيات في الأمم السابقة مثل تحريم قتل الصيد البري على المحرم في الحل والحرم، وابتداء في الأشهر الحرم، فهذه المنهيات هي من جنس المنع الخاص لفعل أشياء لأمم معينة والعبرة العامة تتعلق بالمخالفة مخالفة الله ﷻ وأنها موجب الهلاك.

سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال تعالى فيمن يريد انتهاك حرمة البلد الحرام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ [الحج: ٢٥].

وهذا العذاب في الدنيا أو الآخرة وقد يكون فيهما معاً، فعلى من استهتر بحرمات الله وتهاون في دخول حمى ملك الملوك أسوق هذا المبحث ليعتبر بمصير الهالكين من الأمم السابقة. وهذا مما يدفعنا لتدبر القرآن واستقراء آياته وإعادة النظر فيه لفهم أسلوبه المتضمن لتوجيهه.

فالقرآن الكريم كتاب الرسالة الخاتمة، ومعجزتها التشريعية، وبجانب هذا فالقرآن الكريم يعد أقدم وثيقة تاريخية تم الحفاظ على نصها، بصورة لا تقبل الشك لما توفر لها من الحفظ والرعاية، الشيء الذي لم تحظَ به أي وثيقة بشرية أو كتاب سماوي، فقد أصاب التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل الذي أفرغ محتواها ومضمونها الإلهي فأصبحت كأنها مجهودات بشرية محرفة.

و بهذا يعد القرآن الكريم بجانب صفته التشريعية، له حق الشهادة التاريخية على الأحداث التي ذكرها، كشاهد صادق ومصور حقيقي للمواقف التاريخية التي رواها من خلال آياته معبراً فيها عن كل ما يطرأ على الأفراد والمجتمعات من تغييرات من تقدم أو تخلف أو ضعف أو قوة، أو هلاك، كل ذلك يقع وفق سنن منضبطة مطردة، تصيب الكل ولا يستثنى منها أحد.

إذن من المهم أن نتعرف على هذه السنن الإلهية التي أناط الله ﷻ بها أسباب هلاك الأمم، ونستجلي العبر والدروس المستوحاة من أسباب هلاك الأمم ودمار تلك الشعوب، لنتجنبها و نسير في الكون وفق منهج منضبط يتجنب مصارع السوء في الحياة، حتى نتعرف على المدخل الصحيح الذي يتم به نهوض المجتمعات ورفعتها على الأمم وقيادتها لغيرها، وكذلك نتوصل بهذا الحرص إلى ما يتم به سلامة النفس وحفظها من شرها والشرور التي تكتنفها من الهوى والشيطان، حتى نتعرف على طريق الشهود والشهادة على الأمم الأخرى التي أناط الله تعالى بنا قيادتها إلى سبل الخير، عبر الاستفادة من تجنب أسباب الهلاك وما حل بالأمم السابقة من إبادة وفناء.

ومع أن موضوع البحث يعنى بالهلاك الخاص الذي أصاب أمماً وأفراداً بعينهم، فيبدو لنا أن ذلك الهلاك

متعلق بأسباب خاصة فلا يمكن تعدية تلك الأسباب إلى أمم أخرى، فقد كان ذلك الهلاك تم جراء أفعال خاصة متعلقة بتلك الأمم التي تم هلاكها، ولا يمكن تكرارها أو ورودها مرة ثانية، مثل دخول القرية أو غيرها مما تم إحصاؤه في البحث.

فإن الله تعالى لا يذكر أو يسوق آياته إلا لحكمة ما، ندركها أو لا ندركها، فالوقوف على ما حواه القرآن الكريم من ثروة تشريعية وتربوية ضخمة مهم في إعانة الناس في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم، وإن علاج كل مشاكل الأمة وأزماتها، يتم بالرجوع إلى هذا المعين الصافي المتجدد، لتنهل منه وترتوي فتنطلق الأمة بإذن الله تعالى قوية عظيمة، واثقة من نفسها، متوكلة على خالقها، مترسمة لشريعته كما بينها نبيها ورسولها ﷺ.

فلو أن كل فرد من أفراد هذه الأمة تمسك بالقرآن الكريم، وعض عليه بالنواجذ وبذل وسعه في سبيل تعلمه وتدبره وفهمه لتحسنت الأحوال، وزكت النفوس، ويوم كان المسلمون مقبلين على كتاب الله تعالى تعلماً وتعليماً، وفهماً وتدبراً، وعملاً وتطبيقاً في شتى نواحي الحياة، يوم أن كانوا كذلك صاروا سادة الدنيا وحكامها، وأئمتها وقادتها، وبنظرة إلى تاريخ أمتنا عبر الأجيال المتلاحقة، والحقب المتعاقبة بعد عهد النبي ﷺ نلمس دليلاً قاطعاً: أنه كلما ابتعد المسلمون عن القرآن، ساءت أحوالهم، وكلما تمسكوا كان عزهم، وبقدر تمسكهم بكتاب ربهم، واهتمامهم به، تكون سعادتهم ومنعتهم وسيادتهم على الأمم، وأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

من أجل هذا كانت الحاجة ماسة إلى الرجوع إلى كتاب الله للوقوف على تفسيره، وبيانه، واستخراج بعض من حكمه وأحكامه، وعرضها على الناس بأسلوب مبسط، سهل واضح، بعيداً عن مطولات التفاسير واختلافاتها وما يحمله بعضها من الإسرائيليات والموضوعات، عسى أن تفيد وتساهم في ربط هذه الأمة بالقرآن الكريم. و في هذه العجالة سنقف على ما قاله المفسرون في موضوع الهلاك الخاص الذي أهلك الله تعالى به بعض الأمم والشعوب، لأسباب ذكرها الله ﷻ تبين الهلاك ونوعه وكيفيته.

إذن ما هو وجه الاستفادة من ذكر ذلك الهلاك الخاص بتلك الأمم التي كان هلاكها متعلقاً بهؤلاء الهالكين؟ وهل يمكن أن يتعداهم إلى غيرهم أو يمكن تكراره الآن؟

ومن هنا يجب علينا أن نتدبر القرآن الكريم مستفيدين من حكمه وأحكامه وفق منهج النظر والحذر، من أجل معرفة سنن التطور والنهوض، و أن نتجنب مواجهة هذه الأفعال وما يشابهها، وعدم الوقوف أمام تيارها ومعاكستها، فإن الاتساق مع السنن الإلهية والاستفادة منها هو ما أناط الله به من يخلفه في الأرض فهو خالق الكون ومدبره وجعل هذه السنن سبيلاً لعمارة هذا الكون.

إن التعرف على السنن الكونية في هلاك الأمم وشهودها، هو المحك الحقيقي والاختبار الذي يواجه أمتنا الآن، لأننا بغير معرفة هذه السنن نظل في مواقعنا التي نقف عليها كالمنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، بينما نشاهد الأمم الأخرى وهي تتقدم لتمكنها من معرفة سنن التقانة والتقدم العلمي، بينما أمتنا تعاني من العزلة الحضارية والقطيعة النفسية عن تراثها الإسلامي الحقيقي الذي يصدر من الموروث العظيم لمفكري الأمة وعلمائها على مدى السنوات المتطاولة منذ نزول الوحي إلى يومنا هذا.

أهمية الموضوع

إن البحث عن الهلاك الخاص ببعض الأمم ودراسته والاستفادة منه في الحياة الدنيا وتطبيق أسباب مواجهته وعدم الوقوع فيه على واقعنا المعاش، من أهم واجبات المسلم، وأخطر مسؤولياته في هذه الحياة، لأن الحياة لا تسير اعتباطاً وخبط عشواء، فكل شيء في هذه الحياة يسير في اتساق مع المجموعات الكونية الأخرى، في تناسق تام وتآلف بديع، فعلينا نحن المسلمين أن نبذل جهودنا رحمة بالإنسانية في اكتشاف هذه السنن؛ سنن الهلاك والتعرف عليها واستخدامها وتطبيقها على واقعنا الراهن خدمة لأمتنا وإعادة لنهضتها، وإفادة لكل شعوب العالم المغلوبة على أمرها التي تنتظرنا نحن أمة الدعوة والبلاغ أمة القرآن الكريم.

أسباب اختيار هذا الموضوع

شغل موضوع السنن الإلهية وأسباب الهلاك عدداً من المفكرين والمصلحين من علماء الأمة من السابقين واللاحقين، وقد أناط عدد منهم عودة الإسلام وحاكميته بالتعرف على هذه السنن(١) الموجبة للهلاك العام والهلاك الخاص ببعض الأمم السابقة، وقد وقفوا كثيراً أمام الهلاك وأخبار الأمم المهلكة ليتعرفوا على

(١) مثل الأستاذ الكبير مالك بن نبي، وجودت سعيد وغيرهم كثير.

أسباب هلاكها، وقد عزلوا أسباب الهلاك العامة، عن أنواع الهلاك الخاصة التي تمت في حقب وأمكنة معينة ولأمم بعينها. ومن هذه الوجهة تم توجيه الدراسة لنقف من خلالها على العبرة المستوحاة من ذكر هذا الهلاك الخاص، وما هو الوجه الذي يمكننا أن نستفيده من ذكر هذا الهلاك.

الدراسات السابقة

إن موضوع الهلاك وأسبابه من المواضيع الحيوية المهمة، فلهذا فالكتابة فيه هدف لحد ذاته من قبل المفكرين وعلماء الأمة، أمثال المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي فهو من أشهر المؤلفين في مشكلات الحضارة(١)، فقد كانت كتاباته بحثاً عن سنن العودة ومعادلات الرجوع وعودة الإسلام وحاكميته.

وكذلك ممن كتبوا في هذا الموضوع الكاتب السوري سعيد جودت في كتابه «حتى يغيروا ما بأنفسهم»، وقد ناقش في كتابه هذا أساليب التغيير وسننه من خلال فهم تفسير هذه الآية، وقدم لهذا الكتاب الأستاذ مالك بن نبي(٢).

ومن الكتب التي تناولت هذا الموضوع كتاب: «إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها»، الذي تطرق إلى السنن الإلهية في نهوض الأمة وتخلفها، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني(٣)، وهو عبارة عن بحث في إخراج الأمة المسلمة وكيفية ذلك من خلال دراسة السنن الإلهية التي تهيئ لعودة الإسلام والمسلمين إلى سابق عهدهم وريادتهم.

وممن كتبوا في هذا الموضوع، دكتور عبد الكريم زيدان، فله كتاب بعنوان: السنن الإلهية(٤). وتعد كتابات الأستاذ المفكر الإسلامي محمد قطب من الكتابات الرائدة في موضوع سنن النهضة، وحضور الأمة

---

(١) فقد جعل لمؤلفاته ديباجة عامة سماها: «مشكلات الحضارة»، بحث فيها عن المنهج الحقيقي لعودة المسلمين وشهودهم الحضاري، فقد كان ﷺ من كبار المشخصين لهذه الأزمة.

(٢) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم.

(٣) الكتاب من إصدارات سلسلة «كتاب الأمة» تصدر في رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية القطرية، الكتاب الثلاثون، ١٩٩١م.

(٤) لم يقف الباحث على هذا الكتاب وتعرف عليه في ثنايا بحثه في هذا الموضوع إذ أشار إليه عدد كبير ممن كتبوا في موضوع السنن الإلهية، وديباجة الكتاب: دكتور عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية، مؤسسة الرسالة، بدون رقم أو تاريخ.

المسلمة. وغير هذه الكتب شيء كثير.

أهمية البحث

إن القرآن الكريم كتاب الشريعة الخاتمة، ودستورها الدائم الذي يضبط سيرها ويحدد أهدافها، وإن استصحاب أحداثه، وترسم تعاليمه من أهم الواجبات، إذ ليس من دواعي ذكر القصص القرآني تسلية الحبيب المصطفى ﷺ، أو التلاوة وحسب، ولكنها معاني وعبر نستفيد منها في مسيرتنا في الحياة، ونقيس عليها وننظر في كيفية التعامل معها من خلال الأسلوب الحكيم الذي يسوقه القرآن الكريم. ولما كان صراع الحق والباطل قديماً قدم الحياة، ولن يقف هذا الصراع، كما نراه اليوم من معاناة أصيب بها المسلمون، تتضح لنا أهمية النظر في القرآن الكريم والاستفادة من ذكره لأسباب الهلاك الذي منيت به بعض الأمم والشعوب حتى نتجنبه ونحذر من الوقوع فيه.

أهداف البحث

١ - الوقوف على الآيات التي تطرقت لذكر الهلاك الخاص في القرآن الكريم وأقوال المفسرين فيها.

٢ - السرد التاريخي لقصة أصحاب الفيل ومحاولة هدم الكعبة، وعقر الناقة، والمخالفة في دخول القرية، والاعتداء في السبت.

٣ - استخلاص الحكمة والعبرة، مع ملاحظة سوء الإعداد والتقدير، وعدم سمو الهدف من حملة أبرهة لهدم الكعبة، وكذلك سوء مقاصد المهلكين وخطلهم وخذلان الله تعالى لهم فيما جلبوه لأنفسهم من هلاك.

٤ - معرفة بعض فوائد القصص القرآني.

٥ - الانتباه والحذر من تربص اليهود وأشباههم بمقدسات الأمة كما نشاهد الآن ما يقوم به اليهود من حفريات وهدم بالمسجد الأقصى وحرمه.

٦ - رصد جوانب من الاعتداءات التي يواجهها المسلمون في أنحاء المعمورة والتي تستهدف معاقلهم، ومرده في الأساس للبعد من القرآن الكريم وعدم الاستفادة من توجيهاته في تجنب أسباب الهلاك.

٧ - معرفة أن حماية البيت الحرام والأماكن المقدسة الأخرى واجبة على المسلمين في حال الاعتداء عليها من جانب الأعداء.

٨- الإيمان بالله تعالى من أوليات أسباب النصر وضرورات الاستعداد التي يجب على المسلمين أخذها في الحسبان.

مبحث تمهيدي: أنواع قصص القرآن الكريم

ولما كان البحث له تعلق وثيق بالقصص القرآني فيجدر بنا أن نقف على أنواع القصص في القرآن الكريم؛ إذ يمكن تقسيم قصص القرآن الكريم من حيث تعلقها بقصص الأنبياء وغيرهم إلى نوعين من القصص:

الأول: قصص يتعلق بأحوال الأنبياء وما كان منهم

كقصة آدم ونوح وهود وصالح وشعيب، وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ويوسف وأيوب ويونس و موسى وهارون وداود وسليمان وزكريا وعيسى عليهم وعلي نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام.

ويلحق بهذا النوع ما جاء من قصص أشخاص، أو أشياء تابعة لقصة نبي من الأنبياء، كقصة إبليس، وقصة قابيل وهابيل التابعين لقصة آدم ﷺ، وكقصة فرعون، وقصة العجل، وقصة البقرة، وقصة الخضر، وقصة قارون، التابعة لقصة موسى ﷺ(١).

الثاني: قصص يتعلق بغير الأنبياء

كقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة الرجلين المؤمن والكافر، التي في سورة الكهف، وقصة لقمان وقصة أصحاب الجنة، وقصة أصحاب الأخدود، وقصة سبأ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مر علي قرية و هي خاوية على عروشها وقصة أصحاب الفيل (٢).

الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ

كغزوة بدر و أحد في سورة آل عمران، و غزوة حنين و تبوك في التوبة، و غزوة الأحزاب في سورة

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن. للإمام السيوطي: ص:٣٠١.

(٢) دكتور موسى شاهين لاشين: اللآلئ الحسان في علوم القرآن، القاهرة دار الشروق، الطبعة الأولى، السنة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص ٢٥٨.

الأحزاب، و الهجرة، والإسراء، و نحو ذلك.

مواضيع القصص القرآني

يمكن تقسيم القصص القرآني من حيث موضوع القصة إلى نوعين:

الأول: قصص تناولت جانباً واحداً من حياة صاحب القصة، وكثيرًا ما كان هذا الجانب متعلقاً بالدعوة وبنجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين، وإنذار كفار قريش، وتبشير المسلمين وتسلية رسول الله وتثبيت فؤاده ﷺ، كقصة هود وصالح وشعيب ولوط ويونس ﷺ. وأحياناً كان هذا الجانب يتعلق بجزئية من جزئيات الدعوة كقصة أيوب، وقصة أهل الكهف، وقصة لقمان، وقصة أصحاب الجنة.

الثاني: قصص تناولت جوانب مختلفة؛ كقصة يونس عليه السلام(١).

تكرار القصة وتجزئتها وبيان الحكم في ذلك

تنقسم القصص القرآني من حيث استيفاء القصة في مكان واحد أو توزيعها إلي نوعين، ولذلك حكم كثيرة وجليلة، ويمكن تفصيل ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: هناك قصص جاءت مستوفاة في مكان واحد من سورة واحدة؛ سواء كانت متعلقة بجانب واحد، كقصة ذي القرنين، وقصة أصحاب الجنة وقصة أصحاب الفيل، أو كانت متعلقة بجوانب مختلفة كقصة يونس عليه السلام.

ثانياً: كما توجد قصص تكررت ووزعت أجزاؤها في سور مختلفة؛ وهذا النوع هو الغالب والكثير في قصص الأنبياء عليهم السلام(٢).

ثالثاً: بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها؛ فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، و تصاغ في قالب غير القالب الأول، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معانٍ لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

(١) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، القاهرة مكتبة وهبة، الطبعة الحادية عشرة، السنة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص ٣٠١.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٠٠.

رابعاً: قوة الإعجاز، فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

خامساً: الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام، كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل مع أن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

سادساً: اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة، فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، و تبرز معانٍ أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال(١).

فوائد ذكر القصص في القرآن الكريم

ذكر العلماء فوائد عامة لذكر القصص في القرآن الكريم(٢)، أهمها:

١- الدلالة على صدق رسالة سيدنا محمد ﷺ وصحتها

فإن هذه القصص إخبار بالغيب بالنسبة للنبي ﷺ، لأنه أمي لم يقرأ في كتب السابقين أو يطلع عليها، كما لم يتصل بأهل الكتاب، بل إن بعض القصص نزل جواباً عن تحدي أهل الكتاب وكفار قريش، فدل ذلك على أنه أخبر بالغيب، والإخبار بالغيب معجزة دالة على صدق النبي ﷺ.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٤-٤٥]. ويقول جل من قائل: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٨-٤٩]. ويقول تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

(١) المرجع السابق: ص: ٣٠٣.

(٢) انظر: موسى شاهين لاشين، اللآلئ الحسان في علوم القرآن، ص: ٢٧١. وانظر: مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، العدد الخامس، سنة: (١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣ م) ص: ١٤.

إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: ٤٤-٤٦].

٢- بيان أن دعوة النبي ﷺ متفقة في أصولها مع دعوة من سبقه من الأنبياء

فلا عذر لمن لم يؤمن بها، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد ذكرت القصص القرآنية دعوة الأنبياء لأممهم للوحدانية، ونبذ الأصنام والإيمان باليوم الآخر، واتباع الفضائل وترك الرذائل.

٣- إعلام النبي ﷺ وإعلام المسلمين بأحوال الأنبياء والأمم السابقة

لتكون لديهم الحجة على معارضة أهل الكتاب وتحديهم وتعنتهم كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣].

٤- تثبيت فؤاد النبي ﷺ

لتقوية عزيمته ﷺ للمضي في الدعوة برغم ما يلاقي من أذى واضطهاد، فما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله، وإن يكذبوه فقد كذبت رسل من قبله، وإن يؤذوه فقد صبر الرسل من قبل على ما كذبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصر الله، ولا مبدل لكلماته. ولقد جاءه من نبأ المرسلين. فليصبر كما صبر أولو العزم من الرسل(١).

---

(١) انظر: تفسير الإمام الطبري: ٢٩٦/١٥.

٥- تثبيت أفئدة المؤمنين وغرس الثقة بنصر الله في نفوسهم

وتسليتهم عما أصابهم بما آلت إليه حال المؤمنين السابقين، وحال أعدائهم الكافرين.

٦- العظة والعبرة لكل من الفريقين المؤمنين والكافرين

فقد اشتملت القصة القرآنية على كثير من العظات والعبر التي تؤثر في النفوس العاقلة، والتي تدفع الكافرين إلى الإيمان لئلا يصيبهم مثل ما أصاب الأمم من قبلهم، ولئلا يحل من العذاب العاجل ما حل بقوم هود أو قوم صالح أو قوم إبراهيم أو قوم لوط، وتدفع المؤمنين لزيادة التمسك بدينهم، والتفاني في نشر تعاليمه، وتحمل الأذى في سبيله، لينالوا من النعيم ما أعد لهم ولأمثالهم من السابقين.

وفي ذلك يقول ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ [يوسف: ١١١]، ويقول تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)﴾ [هود: ١٢٠]، ويقول: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣].

٧- إحياء ذكر الأنبياء السابقين، والأولياء والشهداء والصالحين

فإن في ذكر قصصهم تخليداً لجهادهم وفضلهم ما بقي القرآن مكتوباً في المصاحف متلواً في الصدور، استجابة لدعوة إبراهيم ﷺ حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء: ٨٤].

تلك الفوائد العامة، أو الأصول الجامعة لفوائد ذكر القصص في القرآن، وهنالك فوائد أخرى كثيرة تخص كل قصة على حدة(١).

٨- مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى

وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي

(١) انظر اللآلئ الحسان، مصدر سابق، ص: ٢٦٦.

إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣].

٩- والقصص ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليها السامع، وترسخ عبره في النفس

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١][1].

١٠- بيان حكم الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص لقوله تعالى

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤ - ٥].

١١- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين لقوله تعالى عن المكذبين

قال ﷻ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١].

١٢- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين

كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر: ٣٤-٣٥].

١٠- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه

إذا علموا نجاة المؤمنين السابقين وانتصار من أمروا بالجهاد لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]. وتسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: ٢٥ - ٢٦].

١١- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا

(١) انظر مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان (٣١٧-٣١٨).

﴿١٠﴾ [محمد: ١٠].

المبحث الأول: عقر الناقة

إن جميع الأنبياء ﷺ قد أتوا أقوامهم بآيات دالة على صدقهم في دعوى النبوة، وفيما أخبروا به عن الله ﷻ من أحكام الملة، وكانت الآية التي أوتيها صالح ﷺ هي الناقة، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

وصالح ﷺ لم يأت بالناقة من تلقاء نفسه ابتداءً، بل كان ذلك بطلب من قومه، وحكى ابن عطية عن بعضهم أنه جاء بها من تلقاء نفسه من غير طلب(١)، والأول هو المشهور عند أهل التفسير، وهو الصحيح، ويدل عليه آية وحديث، أما الآية فقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤]، وأما الحديث فهو حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: ((لَمَّا مَرَّ النبيُّ ﷺ بالحجر قال: لا تَسْأَلُوا الآياتِ، وقدْ سَأَلَها قَوْمُ صَالِحٍ، فكانت (أي الناقة) تَرِدُ مِن هَذا الفَجِّ(٢) وتَصْدُرُ مِن هَذا الفجِّ، فَعَتَوا عنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوها)) ... الحديث(٣).

وذكر المفسرون أنهم اقترحوا عليه نوع الآية، وكيفية خروجها، وصفتها، فطلبوا ناقة يخرجها أمام أعينهم من صخرة في ناحية من قريتهم، على أن يكون من صفتها كيت وكيت، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق على أن يؤمنوا به إن أتاهم بما طلبوا، فلما آتوه مواثيقهم وعهودهم لجأ إلى ربه فدعاه أن يؤتي قومه ما طلبوا، طمعاً في إيمانهم، واستجاب الله دعاءه فأخرج لهم الناقة من الصخرة الصماء أمام أعينهم كما طلبوا، وذلك بقدرة الله ﷻ، مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي، وهو الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون(٤).

---

(١) انظر: المحرر ٢/ ٤٢١.

(٢) الفج: بالفتح هو الطريق الواسع بين جبلين. مختار الصحاح ص ٤٩١ فجج.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/٢٩٦، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة الأعراف ٢/٣٥١ رقم ٣٢٤٨، وصححه ووافقه الذهبي؛ وقال ابن كثير: "وهو على شرط مسلم"، وحسن إسناده ابن حجر في الفتح ٦/٣٨٠ ٣٨١.

(٤) هذه الكيفية المذكورة في خروج الناقة هي المشهورة عند أهل التفسير، وقد بلغت حد الاستفاضة في الروايات عن ☜

وهكذا خرجت الناقة بهذه الكيفية العجيبة الخارقة للعادة، والتي يعلم كل عاقل أنها خارجة عن طاقة البشر، ورآها القوم بأم أعينهم، وعندئذ طلب منهم صالح أموراً:

أولها: الإيمان بالله ﷻ، وعبادته وحده، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان، والتصديق برسالة صالح، لا سيما أنهم كانوا قد أعطوه المواثيق وبذلك، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣]، فاقتران الدعوة إلى التوحيد بالإشارة إلى الناقة يدل على أنه طلب منهم الإيمان عقب مجيئه بالآية، كما كان طلبه منهم في مستهل رسالته.

ثانيها: تقسيم الماء بينهم وبين الناقة، فيوم لهم، وللناقة يوم، وفي يومهم لا ترد الناقة الماء فيأخذون ما يكفيهم ويكفي أنعامهم، وفي يوم الناقة لا يردون الماء، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥]، ويقول تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٨]، كما حذرهم صالح ﷺ من بخس الناقة نصيبها من الماء، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس: ١٣]، قال ابن كثير ﷺ: "«نَاقَةَ اللَّهِ» أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء «وَسُقْيَاهَا» أي لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لهم شرب يوم، ولكم شرب يوم معلوم"(١).

ثالثها: عدم المساس بالناقة بأي سوء، وكان تحذير صالح فيما يتعلق بهذا الأمر تحذيراً صارماً، لا لبس فيه

الصحابة والتابعين ومن بعدهم. انظر: تفسير عبد الرزاق ٢٣٠/٢/١، وتفسير الطبري ٢٢٤/٨/٥ ٢٢٩، وتفسير السمرقندي ٥٥١/١ ٥٥٢، وتفسير ابن كثير ٢٣٧/٢-٢٣٨، والدر المنثور ٤٩١/٣-٤٩٢، وغيرها. ومقابل هذه الروايات قول شاذ حكاه الزجاج عن بعضهم؛ وحكاه النقاش عن الحسن فيما ذكره ابن عطية وهو أن الناقة كانت من سائر النوق، اعترضها صالح من إبلهم، وجعل لها شرب يوم ولهم شرب يوم، وأن الآية كانت في شربها وحلبها، انظر: معاني القرآن للزجاج ٣٤٩٣٥٠/٢، والمحرر الوجيز ٤٢١/٢، ولم أجد هذا القول المنسوب إلى الحسن في مروياته المجموعة.

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ٥٥٢/٤.

ولا غموض، فمساس الناقة بأي سوء يستدعي العذاب العاجل، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: ٦٤]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥٦]، ويلاحظ في هذه الآية أن النهي انصب على المس بسوء، فلم يقل: ولا تعقروها، أو لا تقتلوها، وفي ذلك لطيفة عبر عنها ابن عاشور بقوله: "وأنيط النهي بالمس وبالسوء، لأن المس يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم فكل ما ينالها مما يراد منه السوء فهو منهي عنه"(١).

وكان خروج الناقة ابتلاء واختباراً لثمود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر: ٢٧]، فكانت ابتلاء لهم وامتحاناً، أيؤمنون بصالح كما عاهدوه بذلك أم ينكصون على أعقابهم ويكفرون، وكان ما طلبه صالح منهم من تقسيم الماء بينهم وبين الناقة وعدم مسها بسوء جزءاً من ذلك الابتلاء. أما صالح فقد أمر أن ينتظر ويترقب ما يؤول إليه أمرهم بعد هذا الامتحان، وأن يصبر عليهم، حتى يأتي الفرج من الله(٢).

ومع وضوح الحجة وظهور البرهان خسرت ثمود الامتحان فاستحبوا العمى على الهدى، ونكثوا العهود، وأصروا على الكفر والتكذيب، وكانوا بذلك قد استوفوا سبباً لجلب العذاب العاجل، ولم يقف أمرهم عند ذلك الحد، بل كانوا لشدة شقاوتهم كمن يهرع إلى حتفه، فأمعنوا في العتو والعناد، وضاقوا ذرعاً بالناقة ويوم شربها، وكبر عليهم رؤيتها تجوب وديانهم وحقولهم شاهدة على قدرة الله، وعلى صدق صالح ﷺ، فأقدموا على ارتكاب المنكر العظيم، الذي طالما حذرهم منه صالح ﷺ، وانتهكوا حرمة الله، وعقروا الناقة، فاستوجبوا العذاب، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ

---

(١) التحرير والتنوير: ٢١٩/٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري، ١٠١/٢٧/١٣، وتفسير ابن كثير ٢٨٢/٤.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٧-٧٨]، وقال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٧-١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الشمس: ١٤].

والربط بالفاء بين عقر الناقة وهلاك القوم في هذه الآيات كلها يدل دلالة واضحة على أن عقرها كان السبب المباشر لهلاكهم، وإن كانوا قد أتوا أسباباً أخرى للهلاك.

والعقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف(١)، ولما كان العقر سبباً للنحر أطلق العقر عليه من باب إطلاق اسم المسبب على السبب(٢).

وقد أسند العقر إلى جميعهم مع أن الذي باشره شخص واحد منهم، كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾ [الشمس: ١١-١٢]، وذلك لأن هذا الذي باشر عقر الناقة إنما فعل ما فعل برضاهم، قال الطبري رحمه الله: "وعن رضا جميعهم قتلها قاتلها، وعقرها من عقرها، ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم"(٣).

ولم يكن نصيب عامة ثمود من العقر مجرد الرضا فحسب، بل كان مع ذلك تحريضاً وحضاً لعاقر الناقة ليقدم على عقرها، قال تعالى: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر: ٢٩].

وقد ذكر في كتب التفسير أن أشقى ثمود الذي عقر الناقة هو قدار بن سالف(٤)، وكان أحد التسعة المفسدين، الذين قال الله فيهم: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل: ٤٨]، وقد ورد ذكره في حديث النبي ﷺ بصفته، لا باسمه، فعن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال:

(١) لسان العرب: ٣٠٣٥/٥ مادة: عقر.
(٢) تفسير الفخر الرازي ١٤/٧/ ١٧٢.
(٣) تفسير الطبري ١٤/٣٠/١٥، وانظر نحوه في: المحرر ٤٢٣/٢، والكشاف ١٧٢/٢، وتفسير الرازي ١٧٢/١٤/٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري ٢١٤/٣٠/١٥، وتفسير ابن كثير ٥٥٢/٤.

((خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ النَّاقَةَ وَذَكَرَ الذي عَقَرَهَا، فَقَالَ: «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا» انْبَعَثَ لها رَجُلٌ عَارِمٌ(١)، مَنِيعٌ في رَهْطِهِ، مِثْلِ أَبِي زَمْعَةَ(٢)))، متفق عليه واللفظ لمسلم(٣).

ولعل هذا الشقي قد ظن أن منعته في قومه تحميه من العذاب الموعود به على عقر الناقة، فارتكب جريمته في نشوة المتكبر العاتي، ولم يدرِ حرمة من انتهك، لقد انتهك حرمة الجبار العزيز، الذي لا يغالب، فجنى على نفسه وعلى قومه الذين مالؤوه، فأتاهم من الله ما لا قبل لهم ولا لأحد به، صيحة واحدة قطعت نياط قلوبهم وتركتهم أجساداً بلا أرواح.

المبحث الثاني: المخالفة في دخول القرية

قصص بني إسرائيل التي وردت في القرآن الكريم تحفل بالمواقف التي تشهد بعنادهم وسوء أخلاقهم في تعاملهم مع أنبيائهم، وكثرة مخالفتهم لأمر الله ﷻ مع عظم نعمه عليهم، وقد عاجل الله المخالفين بالعذاب في بعض تلك المواقف، ومن هؤلاء المخالفون في الدخول إلى القرية.

وقد ذكرت قصة مخالفتهم في سورتي البقرة والأعراف مفصلة، وفي سورة النساء مجملة(٤)، أما في البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا

(١) العارم: هو الشرير المفسد الخبيث، وقيل: القوي الشرس. انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ١٨٨/١٧، والنهاية في غريب الحديث ٢٢٣/٣.

(٢) نقل ابن حجر عن القرطبي أنه يحتمل أن يكون المراد بأبي زمعة الصحابي الذي بايع تحت الشجرة، يعني عبيد البلوي، ثم قال: ويحتمل أن يريد غيره ممن يكنى أبا زمعة من الكفار، وقال: وهذا هو المعتمد، والغير المذكور هو الأسود، وهو جد عبد الله بن زمعة راوي الخبر، وكان أحد المستهزئين، ومات على كفره، [انظر: الفتح ٧٠٦/٨]، وجزم ابن حجر في موضع آخر أنه الأسود بن عبد المطلب [الفتح ٣٧٩/٦].

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول تعالى: «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً»، ١٢٠/٤، وكتاب التفسير، سورة الشمس ٨٣/٦، وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢١٩٠/٤ رقم ٢٨٥٥.

(٤) وردت الإشارة إلى مخالفتهم في هذه السورة في سياق تعداد مخالفاتهم العامة، في قوله تعالى: «وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً» [النساء: ١٥٤].

عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]، وأما سورة الأعراف ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ١٦١-١٦٢].

والسياق في الموضعين متشابه جداً، وثمة فروق يسيره بينهما، كوضع كلمة محل أخرى، أو التقديم والتأخير بين الجمل، أو الزيادة والحذف ونحوها، وكلها لا تخلو من أسرار وحكم لا يتسع المقام لذكرها(١).

والمقصود هنا هو بيان ما دلت عليه الآيات من هلاك المخالفين لأمر الله ﷻ، فالله ﷻ أمر بني إسرائيل بدخول القرية والسكنى فيها، وأباح لهم الأكل فيها في رغد أنى شاؤوا، وطلب منهم مطلباً يسيراً وعدهم على القيام به مغفرة الذنوب، والزيادة في الدرجات، وقد تضمن الطلب قولاً وفعلاً كما يلي:

أما الفعل: فهو السجود حال دخول الباب، وذلك في قوله: «وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً»، وللمفسرين أقوال في المراد بالسجود المأمور به هنا، وهي كالآتي:

١ – أنه الركوع(٢)، وذلك أن أصل السجود هو «الانحناء لمن سجد له معظماً، فكل منحنٍ لشيء تعظيماً له فهو ساجد»(٣).

٢ – أنه السجود المعهود أي أنهم أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخول الباب(٤).

٣ – أنه الخضوع، أي أنهم أمروا بالخضوع لله حال دخول الباب، دون أن يلزموا بهيئة معينة(٥).

---

(١) تتبع الفخر الرازي ﷺ الفروق الموجودة بين الموضعين، واستنبط لذلك حكماً ولطائف مما جادت به قريحته. وينظر للمزيد: تفسيره ٩٨١٠٠/٣/٢.

(٢) وهذا مروي عن ابن عباس ﷺ من طريق سعيد بن جبير. تفسير الطبري ٢٩٩/١/١، والنكت ١٢٥/١، وزاد المسير ٥٧٢/١.

(٣) تفسير الطبري ٣٠٠/١/١.

(٤) وهذا القول مروي عن الحسن البصري. انظر: تفسير الرازي ٩٤/٣/٢، وتفسير ابن كثير ١٠٢/١، ولم أجده في مرويات الحسن البصري.

(٥) انظر: النكت ١٢٥/١، والمحرر ١٥٠/١، والكشاف ٧٠/١، وتفسير الرازي ٩٤/٣/٢.

والقول الثاني المروي عن الحسن البصري هو الأظهر فيما يبدو لي وقد استبعده الرازي لاستحالة فعله حال الدخول(١)، ونقل عنه ابن كثير استبعاده لهذا القول ولم يعقب عليه(٢)، والحق أنه ليس ببعيد، فلفظ السجود وإن كان يعم الركوع والتواضع ونحوهما في لسان العرب، فإنه صار متعارفاً عليه في لسان الشرع بإلصاق الوجه بالأرض تعبداً، فمتى أمكن حمله على ذلك حمل عليه ما لم توجد قرائن ترجح غيره، وحمل السجود على هذا المعنى ممكن في هذا المقام، فيجوز أن الله تعالى أمرهم أن يخروا سجداً على وجوههم عند انتهائهم إلى باب القرية شكراً له وتواضعاً، وهذا أمر ممكن جداً حتى ولو كانوا راكبين فبإمكانهم النزول والسجود عند محاذاة الباب، ويقوي هذا ما يرد ذكره في الحديث من زحف المخالفين على أستاههم بدل السجود؛ فكأنهم لما أمروا بالسجود ورأوا المطيعين يخرون سجداً جاؤوا بضد ذلك فزحفوا على أستاههم على سبيل المعاندة والاستهزاء، والله أعلم.

وأما القول: الذي أمروا بقوله حال دخول الباب فذلك ما ورد في قوله تعالى: «وَقُولُوا حِطَّةٌ» و «حِطَّةٌ» على وزن فِعْلة، من حط يحط(٣)، ومعناه: احطط عنا خطايانا، فهي كلمة في معنى الاستغفار(٤).

وهذا الذي أمر به بنو إسرائيل من القول والفعل شيء سهل يسير لا مشقة فيه على النفس أو البدن، وفي القيام به مغفرة الذنوب، والوعد بالمزيد للمحسنين؛ وعمل جمع فيه بين اليسر وعظم الأجر حري أن يبادر إلى فعله ويسارع، وهو ما فعله ذوو الحجى من بني إسرائيل، فامتثلوا أمر ربهم وفازوا بالمغفرة والمزيد، أما أهل العناد والشقاق فخالفوا، وبدلوا، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، وقال في موضع الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، ولم يكن تبديلهم مقتصراً على عدم فعل المأمور فقط كما حكي عن بعضهم(٥) بل إنهم لم يمتثلوا الأمر، وزادوا على ذلك، فأتوا ببدل

(١) تفسيره ٩٤/٣/٢.
(٢) تفسيره ١٠٢/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري ٣٠٠/١/١، والمحرر ١٥٠/١.
(٤) انظر: المصدرين السابقين، ومعاني القرآن للزجاج ١٩٣/١، والنكت ١٢٦/١، وتفسير ابن كثير ١٠٢/١، وهناك أقوال في معنى (حطة) عن بعض التابعين، ومردها كلها إلى الاستغفار والاستسلام، فهي اختلاف في التعبير، والله أعلم.
(٥) حكاه الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني، تفسيره ٢٩٧/٣/٢.

له، وفعلوا فعلاً غير الذي أمروا بفعله وقالوا قولاً غير الذي أمروا بقوله، إمعاناً في المعاندة والمخالفة، والبدل الذي أتوا به هو ما ورد في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((قِيلَ لبني إِسْرائيلَ: ادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ يُغفر لَكُم خَطَايَاكُم، فَبَدَّلُوا فَدَخَلُوا البَابَ يَزْحَفُونَ على أَسْتَاهِهِم(١) وقَالُوا: حَبَّةٌ في شَعْرَةٍ))، متفق عليه واللفظ لمسلم(٢).

وهذا الذي فعلوه من الزحف على الأدبار بدل السجود، وقول كلام شبيه باللغو بدل الاستغفار لم يكن إلا استهزاء منهم بأوامر الله، واستخفافاً بها، فكان الله لهم بالمرصاد، إذ لم يمهلهم ولم يؤجلهم، بل عاجلهم بالعقاب فأنزل عليهم رجزاً من السماء، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وقال في موضع الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

والربط بالفاء بين ذكر تبديلهم وبين ذكر إنزال العذاب عليهم في الموضعين يدل على أن ما فعلوه من التبديل هو سبب نزول العذاب عليهم.

وقد وصفهم الله بالظلم والفسق لفعلهم هذا، أما الظلم فوصفوا به عند ذكر تبديلهم لأمر الله، وأعيد عند ذكر نزول العذاب عليهم مبالغةً في تقبيح فعلهم، وإشعاراً بأن فعلهم ظلم سبب لهم هذا العذاب(٣)، هذا في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف وصفهم بالظلم أيضاً، عند ذكر التبديل، ثم بالفسق في خاتمة القصة، لجمعوا بين صفتين قبيحتين بسبب مخالفتهم هذه، وقد نالوا جزاءهم العادل.

المبحث الثالث: الاعتداء في السبت

قصة أصحاب السبت شبيهة بسابقتها المذكورة في المبحث الثاني، فكلتاهما تحكيان هلاك طائفة من بني إسرائيل انتهكوا حرمات الله ﷻ.

---

(١) جمع است، وهو الدبر. شرح صحيح مسلم للنووي ١٥٢/١٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة ١٤٨/٥، وفي سورة الأعراف بنحوه ١٩٧/٥، وصحيح مسلم، كتاب التفسير ٢٣١٢/٤ رقم ٣٠١٥.

(٣) انظر: الكشاف ٧١/١، وتفسير الرازي ٦٧/٣/٢، وتفسير البيضاوي ٦٤/١.

وهذه القصة متعلقة بشعيرة فرض الله تعظيمها على اليهود، وهي حرمة يوم السبت، والله ﷻ لم يلزمهم بحرمة هذا اليوم ابتداء، بل كان ذلك بسبب عنادهم وشقاقهم، فقد فرض الله عليهم تعظيم يوم الجمعة، فأبوا إلا أن يكون الأمر على هواهم، فألزمهم الله بما اختاروا وشدد عليهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النحل: ١٢٤]، ويوضح معنى هذه الآية حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيامَةِ، ونَحْنُ أَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِنا، وَأُوتِينا مِن بَعْدِهِم، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدانا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ، فَهَذا يوْمُهم الذي اخْتَلَفُوا فِيهِ هَدَانا اللهُ لَهُ، قالَ: يَوْمُ الجُمُعَةِ، فَاليَوْمُ لَنا، وَغَداً لِليَهُودِ، وبَعْدَ غدٍ للنَّصارَى))، متفق عليه واللفظ لمسلم(١)، وفي رواية لمسلم: ((فَهَذا يَوْمُهُم الذي فُرِضَ عَلَيهِم فَاخْتَلَفُوا فِيهِ))(٢).

وذكر أهل التفسير أن الله أمر موسى ﷺ باتخاذ يوم الجمعة يوم عبادة، وعرفه فضله وشرفه، فبلغ موسى ذلك إلى بني إسرائيل، وأمرهم بالتجرد للعبادة في هذا اليوم، لكنهم شغبوا عليه كعادتهم ونازعوه في أفضلية يوم الجمعة على سائر الأيام، وقالوا: نختار يوم السبت، لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الربّ شيئاً، فأوحى الله إلى موسى أن دعهم وما اختاروا، فألزمهم السبت وشدد عليهم وامتحنهم وحرم عليهم الاشتغال بأعمال الدنيا في هذا اليوم(٣).

أما هؤلاء الذين انتهكوا حرمة هذا اليوم وهلكوا بسبب ذلك فكانوا أهل قرية على ساحل البحر، يحترفون صيد الحيتان، وقد ابتلاهم الله ابتلاء شديداً، وامتحنهم امتحاناً عجيباً، فكانت الحيتان تأتي إلى الساحل يوم السبت ظاهرة على وجه الماء، فلا يقدرون على المساس بها لحرمة ذلك اليوم، وفي سائر الأيام تبتعد الحيتان عن الساحل، وتنزل إلى أعماق البحر فلا يقدرون على صيدها إلا بعد الجهد والتعب.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة ٢١١/١، وصحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٥٨٥/٢ رقم ٨٥٥/٢٠.

(٢) الإحالة السابقة.

(٣) هذه الحكاية مروية عن بعض التابعين، كمجاهد وقتادة وسعيد بن جبير، مع اختلاف في الصيغ. ينظر: تفسير الطبري ١٩٣/١٤/٨، وتفسير السمرقندي ٢٥٥/٢، والمحرر الوجيز ١٦٠/١، وتفسير ابن كثير ٦١٣/٢.

والله ﷺ إنما ابتلاهم بهذا البلاء بسبب فسقهم، قال تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وإسناد الاعتداء في السبت إلى أهل القرية كما في الآية إنما هو من باب التغليب، لأن المعتدين كانوا طائفة منهم لا كلهم، بدليل ما يأتي ذكره من وعظ الواعظين، وسكوت الساكتين، وهذه الطائفة المعتدية شرذمة من الفسقة، ضعاف الإيمان، غلبهم الجشع والطمع، فلم يصمدوا في الامتحان، واجترؤوا على انتهاك حرمات الله فصادوا الحيتان في اليوم الحرام.

وقد اختلف المفسرون في الطريقة التي سلكوها في صيد الحيتان، منتهكين حرمة السبت، ولهم في ذلك قولان:

أولهما: أنهم صادوا الحيتان علانية دون أية حيله، وأن الأمر بدأ بأفراد من الفسقة، فلما لم يصبهم شيء انضم إليهم آخرون، وظنوا أن ما وعدوا به من العذاب على انتهاك حرمة السبت باطل لا صحة له، وازداد هؤلاء حتى صاروا جماعة(١).

والثاني: أنهم لم يصيدوا الحيتان علانية، وإنما تحايلوا في صيدها، وتعاطوا أسباباً ظاهرها مراعاة حرمة السبت، وباطنها الانتهاك. أما الحيلة التي سلكوها في صيد الحيتان؛ فقيل إنهم حفروا حفراً على هيئة الأحواض، وجعلوا لها جداول تصل إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتحوا الجداول فيأتي الموج بالحيتان إلى الجداول حتى يلقيها في الحفر، ثم لا تستطيع الحيتان أن تعود إلى البحر لقلة ماء الجدول، فإذا كان يوم الأحد جاءوا واخذوا ما في تلك الحفر من الحيتان(٢). وقيل: إن احدهم أخذ حوتاً يوم السبت وربطه بخيط، ووتد له وتداً في الساحل، ثم أرسل الحوت في الماء، ثم أتى يوم الأحد فأخذه، فلما لم يصبه شيء تابعه آخرون، وسلكوا مسلكه في التحايل(٣).

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٣٠/١/١، وزاد المسير ٨٠/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري ٣٣٠/١/١، والكشاف ٧٣/١، وزاد المسير ٨١/١، وتفسير ابن كثير ١٠٩١١٠/١، وتفسير البيضاوي ٦٧/١.
(٣) أنظر: تفسير الطبري ٣٣٠/١/١، والمحرر الوجيز ١٦٠/١.

وكلا هذين القولين محتمل الوقوع، ولا يمكن الجزم بواحد منهما لعدم وجود الدليل القاطع، ويجوز أن يكون المعتدون قد سلكوا كلا الطريقين، فيكون بعضهم وصل بهم الفسق إلى حد الجرأة على صيد الحيتان علانية، وقصر آخرون عن ذلك فسلكوا طريق الحيل للوصول إلى ما وصل إليه أصحاب العلانية، إما بحفر الحفر، أو ربط الحيتان بالحبال والشباك، ظانين أنهم قد حفظوا للسبت حرمته.

وذكر بعض أهل التفسير أنهم إنما سلكوا طريق الحيل في بادئ الأمر، فلما لم تصبهم العقوبة أمنوا واستحلوا صيدها علانية(١).

وهذا هو المظنون بهم، والمتوقع منهم؛ فإن الذي يسلك طريق الحيل للوصول إلى المحرمات لا يقف عند ذلك الحد غالباً، بل يعتاد ذلك الفعل ويستسيغه، فيزداد جرأة على الفعل المحرم، واستخفافاً بالنهي، ويكون بذلك قد ألقى بزمامه في يد المحتال الخبيث، إبليس اللعين، فلا يزال به يغريه ويوسوس له حتى يرتكب العمل المحرم علانية دون تحايل.

وسواء أكان هؤلاء صادوا الحيتان علانية، أم بتحايل، فإنهم قد أتوا منكراً عظيماً، وانتهكوا حرمات الله، واستخفوا بأمره، فكانت عاقبته وبالاً عليهم.

وإزاء هذا الانتهاك لحرمة يوم السبت انقسم أهل القرية إلى ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: اعتدت في السبت وصادت الحيتان.

الفرقة الثانية: لم تعتدِ، وأنكرت على المعتدين، ووعظتهم وحذرتهم من عقاب الله.

الفرقة الثالثة: لم تعتدِ في السبت، لكنها لم تقم بوعظ المعتدين، كما فعلت القرية الثانية، وهذه الفرقة هي التي قال الله عنها: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وهذه الفرقة قالت هذه المقالة للفرقة الواعظة على سبيل التعجب من استمرارهم في وعظ قوم ميئوس من هدايتهم، بسبب استحلالهم لما حرم الله، وتماديهم في الشر، وعدم انتفاعهم بالوعظ، فحكموا بحلول العقاب بهم، إما هلاكاً في الدنيا، أو عذاباً شديداً في

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/١٢٦، والمحرر الوجيز ١/١٦٠.

الآخرة(١).

وقد أجابتهم الطائفة الواعظة بما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، أي نقوم بفرضنا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليثبت عذرنا عند الله، ولعل هؤلاء المعتدين ينتفعون بالموعظة، فيتقوا الله، ويرجعوا إليه تائبين(٢).

وذكر بعض المفسرين أن أهل القرية كانوا فرقتين: عاصية وناهية، وأن بعض العاصية هم الذين قالوا للناهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وذلك على سبيل الاستهزاء، كأنهم قالوا لهم: كيف تعظون قوماً قد علمتم وحكمتم أن الله مهلكهم أو معذبهم(٣)، والقول الأول هو الأرجح(٤)، قال ابن عطية: "والقول الأول أي كونهم ثلاث فرق أصوب، وتؤيده الضمائر في قوله: «إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ»، فهذه المخاطبة تقتضي مخاطِباً، ومخاطَباً، ومكنياً عنه"(٥)، والله أعلم.

وبعد أن ذكر الله مواقف الفرق الثلاث بين ما آل إليه أمر الناهية والعاصية، وسكت عن الساكتين لسكوتهم، وفي السكوت عنهم سلامة من الزلل، قال ابن كثير ﷺ: "وسكت عن الساكتين لسكوتهم، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا "(٦).

أما الفرق الناهية فقد نجت من العذاب، وأما العاصية فقد هلكت، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥-١٦٦]، ونسيانهم لما ذكروا به هو تركهم ما وعظوا

(١) انظر: تفسير الطبري ٩٢/٩/٦، والمحرر ٤٦٩/٢.
(٢) انظر المصدرين السابقين، وتفسير ابن كثير ٢٦٨/٢.
(٣) وبهذا قال السمرقندي في تفسيره ١/ ٥٥٧، وحكاه هود بن محكم عن الكلبي [انظر: تفسيره ١١٣/١-١١٤]، وذكره ابن عطية كقول [المحرر ٤٦٨/٢]، وكذا الرازي [انظر: تفسيره ٤٢/١٥/٨]، والبيضاوي [انظر: تفسيره ٣٦٥/١].
(٤) وقد رواه الطبري في تفسيره ٩٧/٩/٦ عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير وعكرمة، وكذا عن بعض التابعين، ونسبة ابن عطية إلى جمهور المفسرين. المحرر ٢/ ٤٦٤، وانظر: تفسير الكتاب العزيز ١/ ١١٤، وتفسير الرازي ٤١/١٥/٨-٤٢، وزاد المسير ١٨٨/٣، وتفسير ابن كثير ٢٦٨/٢، وتفسير البيضاوي ٣٦٥/١.
(٥) المحرر الوجيز ٤٦٨/٢.
(٦) تفسيره ٢٦٨/٢.

به من الكف عن الاعتداء في السبت، وقد تركوه ترك الناسي للشيء، كأنهم لم يذكروا به البتة(١).

ويلاحظ في السياق أنه ربط بين نسيانهم لما ذكروا به وبين أخذهم بالعذاب البئيس، وفي الآية الثانية ربط بين عتوهم وبين مسخهم قردة، والعذاب البئيس هو الشديد الموجع(٢)، وهو إما أن يكون غير المسخ المذكور في الآية الثانية، فيحمل ذلك على أن الله تعالى عذبهم عذاباً شديداً دون الاستئصال لما نسوا ما ذكروا به، فلم يقلعوا عند الاعتداء، وعتوا عما نهوا عنه فسخهم قردة، أو يكون العذاب البئيس عين المسخ، فيكون من قبيل التفصيل بعد الإجمال، والإيضاح بعد الإبهام، وعلى ذلك يكون قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ بمنزلة التأكيد لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾، على سبيل التهويل والتشنيع لفعلهم الذي أوجب هلاكهم، لحاصل الأمر أن نسيانهم ما ذكروا به كان مقارناً للعتو عما نهوا عنه(٣).

ولعظم جرم هؤلاء استحقوا أن يوصفوا بالظلم والفسق مثلما وصف بهما من سبقهم من منتهكي حرمات الله كما سبق بيان ذلك في خاتمة الحديث عن المخالفين في الدخول إلى القرية. والله تعالى أعلم.

المبحث الرابع: محاولة هدم الكعبة

يصطفي الله ﷻ ما يشاء من الأمكنة والأزمنة، فيختص ما يشاء منها بفضله فيميزها عن غيرها، فيشرع لعباده تعظيم ما اصطفاه من مكان أو زمان، وقد شرف الله ﷻ مكة، فجعلها من أقدس البقاع وأفضل الأماكن على وجه الأرض، فاصطفاها على غيرها، فجعل فيها بيته العتيق.

وقد استفاضت النصوص على أفضلية هذه البقعة على سائر البقاع وتميزها عنها(٤)، فهي حرم الله تعالى وأمنه وحماه، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

(١) انظر: تفسير البيضاوي ١/ ٣٦٥، وتفسير أبي مسعود ٢/ ٤٢٣.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ٩/ ١٠١، والمحرر ٢/ ٤٦٩، وتفسير البيضاوي ١/٣٦٥، وفي كلمة «بئيس» قراءات متواترة وشاذة غير أن المعنى لا يختلف بسببها، ويراجع: التيسير ص ١١٤، وإتحاف فضلاء البشر ص ٢٣٢.
(٣) ينظر: الكشاف ٢/ ١٠١، وتفسير أبي السعود ٢/ ٤٢٤، والتحرير ٩/ ١٥٣.
(٤) ولسنا هنا بصدد عقد مقارنة بين أفضلية مكة المكرمة أو المدينة المنورة كما تناول ذلك بعض العلماء.

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وهذه المكانة التي جعلها للكعبة وما حولها لم تكن مقيدة بفترة زمنية معينة، بل الله تعالى جعل لها هذه المكانة منذ بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، في حديث ابن عباس ﷺ مرفوعاً قال: قال النبي ﷺ يوم الفتح: «إِنَّ هَذا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ، فَهُوَ حَرامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ»، رواه مسلم(١). وقد سلم المؤمنون بهذه المكانة التي حباها الله للكعبة وما حولها منذ القدم، فعظموها، وصانوا حرمتها، فأمن جيرانها، ومن دخل حرمها.

ولما انحرف العرب عن دين إبراهيم ﷺ(٢)، وعبدوا الأصنام، كان تعظيم بيت الله من بين الشعائر القليلة التي حافظوا عليها من بقايا دين إبراهيم، وإن كانوا قد دنسوه بأصنامهم وأوثانهم التي نصبوها حوله، ثم طهره النبي ﷺ منها عام فتح مكة.

فبيت الله الحرام بقي معظماً مبجلاً طوال التاريخ، لم يتسلط عليه جبار قط، وجاءت حادثة أصحاب الفيل لتعزز مكانة البيت في قلوب الناس، إذ كانت تلك الحادثة المحاولة الوحيدة للاعتداء على البيت وهدمه، وقد انتهت تلك المحاولة بهلاك المعتدين، وتدميرهم أشد التدمير.

وقد أجمل القرآن الكريم السبب الذي أدى بهم إلى ذلك المصير السيئ في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾ [الفيل: ٢]، وكيدهم هو مكرهم وسعيهم في تعطيل الكعبة وتخريبها(٣)، وقد جعله الله «فِي تَضْلِيلٍ» أي في تضييع وإبطال(٤)، فأضاع جهدهم وأبطل مكرهم، فلم يصلوا إلى ما كانوا يصبون إليه من هدم الكعبة وتخريبها، بل حال دونهم وأنزل بهم الهلاك الموصوف بقوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ٣-٥].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة ٢/٩٨٦ رقم ١٣٥٣

(٢) دين سيدنا إبراهيم ﷺ هو الحنيفية السمحاء، قال تعالى: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [آل عمران: ٦٧].

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٥/٣٠/٢٩٦، وتفسير البغوي ٨/٥٤٠، وتفسير البيضاوي ٢/٦٦٣.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/٦٦٣.

وأصحاب الفيل هم أبرهة وجيشه الذين كانوا يدينون بالنصرانية، وكان الواجب عليهم أن يعظموا بيت الله لأن الذي بناه هو إبراهيم ﷺ، وهم يدعون أنهم من أتباعه، بل يزعمون أنه كان على ملتهم كما يدل على ذلك تكذيب القرآن الكريم لهذه الدعوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧] (١).

وهب أنهم لم يجدوا في دينهم المحرف، وكتابهم المبدل ما يلزمهم بتعظيم البيت، فكان من مقتضى الحكمة والحيطة والحذر أن يتحاشوا هذا البيت كما تحاشاه من سبقهم من الملوك الجبابرة مع كثرتهم، فهم لم يسمعوا بأحد قبلهم غزا هذا البيت المشهور بين الناس بأنه بيت الله، لكن هؤلاء لشقاوتهم أرادوا أن يحوزوا قصب السبق في الوصول إلى ما لم يصل إليه أحد ممن قبلهم، فكانت عاقبة سعيهم خسراناً ووبالاً.

وقد اختلفت الروايات في تحديد السبب المباشر الذي حمل أبرهة وجيشه على السير إلى مكة لهدم البيت، والمذكور في أغلب كتب التفسير والتاريخ سببان:

الأول: أن أبرهة لما استتب له الحكم في اليمن بنى هناك كنيسة عظيمة وأراد صرف حج العرب عن الكعبة إلى تلك الكنيسة، وكتب بذلك إلى النجاشي، فأفزع ذلك العرب وأغضبهم، فأتى رجل منهم الكنيسة ليلاً، وتسلل إليها، ثم تغوط فيها تحقيراً لشأنها، وإغاظة لصاحبها، فبلغ الأمر إلى أبرهة، فغضب غضباً شديداً، وأقسم ليسيرن إلى مكة، وليهدمن الكعبة حجراً حجراً(٢).

والثاني: أن فتية من قريش خرجوا إلى الحبشة في تجارة فنزلوا على بيعة(٣) للنصارى، فأوقدوا ناراً لطعامهم ثم ارتحلوا وتركوها فهب ريح عاصف فأضرمت في البيعة ناراً واحترقت، فوصل الخبر إلى النجاشي فغضب

(١) وقد أشار ابن عاشور إلى هذه المسألة، ينظر: التحرير ٥٤٣/٣٠-٥٤٤.

(٢) ينظر سيرة ابن إسحاق ص ٣٨ ٤٢، وقد ساق القصة بطولها، وتفسير الطبري ٢٩٩/٣٠/١٥ ٣٠٣، وتفسير السمرقندي ٥١٣/٣، والنكت ٣٣٩/٦، والمحرر ٥٢٣/٥، وتفسير الرازي ٩٦/٣٢/١٦، وتفسير القرطبي ١٨٧/٢٠ ١٨٨، وتفسير ابن كثير ٥٨٧/٤، وتفسير البيضاوي ٦٢٣/٢، والكامل في التاريخ ٢٦٠/١، والبداية والنهاية ١٥٧/٢ ١٦١.

(٣) البيعة (بكسر الباء): كنيسة النصارى. انظر: مختار الصحاح ص ٧١، واللسان ٤٠٢/١ بيع.

غضباً شديداً، فانتدب بعض قواده ومنهم أبرهة وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي أهل مكة(١).

والقول الأول هو الأشهر عند أهل التفسير والتاريخ، وهو الأقرب إلى الوقائع التاريخية لجزيرة العرب إبان وقوع حادثة أصحاب الفيل، والله أعلم.

ومجرد عزم أبرهة على هدم الكعبة يعد عملاً يستجلب العذاب الإلهي، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥].

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: ((لو أن رجلاً بعدن أبين(٢) همّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأذاقه من العذاب الأليم))(٣)، فإذا كان هذا فيمن همّ بقتل رجل فكيف بمن همّ بهدم البيت من أساسه؟ لا ريب أنه يكون أحق بالعذاب الأليم، لكن الله ﷻ لم يعجل بهلاك أبرهة وجيشه بمجرد همهم بهدم البيت، بل أمهلهم حتى إذا أبرموا أمرهم، وأجمعوا كيدهم، ووصلوا إلى حدود الحرم، وظنوا أنه قد تم لهم ما أرادوا عندئذ أنزل بهم العذاب الأليم، ليكون بهم الاعتبار لمن بعدهم.

ولو أن الله أهلك أبرهة عند همّه بهدم البيت وهو في اليمن لما تبين لكثير من الناس أن هلاكه كان بسبب ذلك الهم، أما وقد همّ بهدم البيت، ثم شرع في الأسباب الموصلة إلى مقصده، لجيش الجيوش، وسار

---

(١) وهذا قول مروي عن مقاتل والكلبي، وكلاهما ضعيفان. ينظر: معاني القرآن للزجاج ٣٦٣/٥، والنكت ٣٤٠/٦، وزاد المسير ٣٠٩/٨، وتفسير ابن كثير ٥٨٧/٤.

(٢) عدن: مدينة في جنوب اليمن على ساحل البحر، وأبين: بفتح الألف وكسرها، وهو اسم رجل في الزمن القديم إليه تنسب عدن أبين، وهو من مناطق الحكم في الزمن القديم، وكانت عدن جزءاً منه، وإليه يضاف. وإلى عهد قديم كانت عدن عاصمة لما كان يعرف باليمن الجنوبي وبعد الوحدة صارت العاصمة الاقتصادية لدولة اليمن. ينظر: معجم البلدان ١٠٩/١، ١٠٠/٤، والروض المعطار ص ٤٠٨، والمعالم الأثيرة ص ١٧٨.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤١/١٧/١٠ من طريق السدي الكبير عن مرة الهمذاني عنه، وهو طريق حسن، وقد أخرجه أحمد في المسند بنحوه ٤٢٨/١، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير ٤٢٠/٢ رقم ٣٤٦١ مرفوعاً وموقوفاً وصححه ووافقه الذهبي، وقد رفعه بعضهم والوقف أصح، قال ابن كثير بعد أن ساق إسناد ابن أبي حاتم من الطريق المذكور: "هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري ووقفه أشبه من رفعه"، انظر تفسيره ٣٢٥/٣، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند ٦٥/٦–٦٦ رقم ٤٠٧١ لكنه رجح صحة رفعه.

إلى مكة، وهزم كل من تصدى له في الطريق، ووصل إلى حدود الحرم وأقرت قريش بعجزها عن قتاله فلجؤوا إلى الجبال، وخلوا بينه وبين البيت، واستعد لدخول الحرم والناس مترقبون ما ينتهي إليه أمره، وفي تلك اللحظة أهلكه الله وجيشه بعذاب اختص بهم دون سواهم ممن حولهم من أهل مكة وغيرهم مع كفر أولئك وشركهم، في هذه الحالة لا يلتبس الأمر على أحد، فيظهر للناس جلياً أن الله تعالى إنما أهلكهم بسبب محاولتهم انتهاك حرمه، وهدم بيته، فصان حرمه أن ينتهكه المعتدون، وحمى بيته أن يتسلط عليه الجبارون، وجعل أبرهة وجيشه عبرة لغيرهم، فبعداً لهم وسحقاً.

الخاتمة

القرآن الكريم كتاب الرسالة الخاتمة، اكتملت آياته وتناهت معانيه، والأحداث متجددة والحياة تسفر كل يوم عن الغريب والجديد، فساق الله ﷺ لنا أحداث الأمم السابقة تسلية للحبيب المصطفى ﷺ ليتعزى وينظر إلى معاناة إخوانه المرسلين من قبله ويقف على معاناتهم مع أممهم، ويتوجه الخطاب لنا نحن أمته لننظر في مصاب تلك الأمم المكذبة العاصية لنتعرف على سنن هلاكهم وأسباب تدميرهم فنتجنبها ونحذرها.

ومن المؤسف حقاً أننا على الرغم من تلاوتنا للقرآن الكريم والوقوف على آيات الهلاك ومشاهد تدمير بعض الأمم التي حاق بها هذا الهلاك، وما ذكره النبي ﷺ مما جاء في السنة المطهرة من أحاديث تشرح وتفصل أسباب الهلاك وتحذر الأمة من مغبة السير في ركاب أهل الكفر ومحاكاة أهل الشرك، فرغم ذلك تجدنا في غفلة من أمرنا، فيندر فينا من يعتبر، ويعزّ بيننا من يتّعظ، فما أكثر العبر وما أقل الاعتبار.

وفي هذا البحث طوفنا على أقوام حاق بهم الهلاك لأسباب خاصة، بعد تحذيرهم من فعل أمور متوجهة إليهم بعينهم دون سواهم، وربما ليس التحذير منها قائماً اليوم، بينما نجد كل التحذير والإنذار من أسباب الهلاك العامة لا يزال قائماً، مثل تطفيف المكيال في قوم شعيب، وإتيان الذكور في قوم لوط.

ولكن تبقى خطورة الأمر بالنسبة لنا أمة الرسالة الخاتمة أن نحذر ونتجنب الوعيد في إتيان حرمات الله تعالى والتهاون بها، ومهما كان رفع هلاك الاستئصال لهذه الأمة فعلينا أن نحذر ولا نستهتر أو نتهاون في التعدي على حرمات ملك الملوك الواحد الأحد، لأن الحجة قائمة علينا.

التوصيات

١ – العبرة من ذكر الهلاك الخاص بأمم سابقة أخطر في دلالته على التحذير من ذكر الهلاك العام لأنه يوضح لنا أن الاستهتار والتهاون بحرمات الله تعالى من الخطورة بمكان.

٢ – على المسلم التسليم التام بأوامر الله تعالى في نهيه وأمره، ولسنا مطالبين بمعرفة الحكمة من هذا المنع أو النهي؛ عرفنا الحكمة أو لم نعرفها.

٣ – على ولاة الأمر الأخذ بيد الحزم والشدة مع أهل الباطل والضلال ومنعهم من السير في غيهم وضلالهم حفاظاً على الأمة من هلاك جزئي يحيق بها.

٤ – تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية مدعاة لحفظ الأمة من الهلاك.